غير واضحة المعالم، كان الكيان العراقي، بدوره، كياناً مصطنعاً على غرار الكويت، قد تمّ تأسيسه بفضل اتفاقات سايكس ـ بيكو التي وزّعت ما تبقّى من جثة الامبراطورية العثمانية على فرنسا وبريطانيا؛ وهكذا تشكّل العراق من ثلاث مناطق تركية قديمة، هي بغداد [و] الموصل والبصرة. وتعبّر الفكرة التالية أفضل تعبير عن هذا الواقع: ' العراق حصيلة نوية جنون أصابت [ونستون] تشرشل، الذي أراد الجمع بين حقلين للنفط، لا يوجد بينهما أي قاسم مشترك: كركوك والموصل. ولهذا السبب، تمّ جمع ثلاثة من الشعوب، التي لا يجمعها جامع: الأكراد، السنّة، الشيعة' » (ص ٢٤). وعلى ذلك، قال الكاتبان، ان الرئيس صدام حسين، بعد ان أرسل قواته الى الكويت، «كان يستمع الى التقارير المقدّمة اليه، والى الأخبار الواردة من الجبهة، دون ان يحاول اخفاء سروره. فالبلد الذي احتله للتوّ هو خزنة مال حقيقية؛ وهو، بحسب رأيه، جزء لا يتجزأ من العراق؛ ولم يكن صدام حسين يشك للحظة في انه، بمحاولته تصحيح خطأ القوى الاستعمارية، كان يتحدّى سائر العالم» (ص ١٠٨ ـ ١٠٩).

الثالوث الذي تشكّله الفقرة السابقة، والذي يمكن ترجمته بـ «الوضع الاقتصادي للعراق بعد الحرب الايرانية ـ العراقية؛ والتطلّعات التاريخية للعراق على الصعيد العربي؛ والدور الذي يطمح العراق الى لعبه في المنطقة، وعلى صعيد العالم»؛ هذا الثالوث يشكّل محاور التحقيق الذي عرضه الكاتبان، حيث يجد القارىء نفسه، باستمرار، تجاه سؤال: هل كان ممكناً تجنّب الحرب في منطقة الخليج؟ فلو استجابت حكومة الكويت الى مطالب العراق، أما كان ممكناً تحاشي تلك الحرب؟ قال الكاتبان: «لا يمكن تصوّر بلدين، هما على طرفي نقيض، كالعراق والكويت. ففي العراق تتركّز السلطات في شخص حاكم مطلق التصرّف يعيش... أحلام السلطة والقوة. وفي مواجهة العراق، البلد المتقشّف، الذي يعد ١٨ مليوناً من البشر... تتربّع امارة الكويت على الثروة والوفرة، حيث يتقاسم ما يوازي الألف من أفراد أسرة آل الصباح الحاكمة المناصب المختلفة، اضافة الى السلطة والأرباح، وكأنهم أعضاء مجلس الادارة في أي شركة من الشركات المزدهرة... ان وفرة المال تؤدي، في الغالب، الى الادّعاء وفقدان البصيرة؛ ولأنهم لم يُحسنوا تجنّب الوقوع في أسر هاتين النتيجتين السلبيتين، مهّد حكّام الكويت الطريق أمام مأساة لم يعوا، بالتأكيد، مؤشراتها الأولية، فأصبحت معالمها واضحة، وغدت جاهزة لنقل المآسي والحروب الى المنطقة» (ص ٨ ـ ٩). ففي ١٨ تموز (يوليو) ١٩٩٠، تحرّكت دبابات عراقية الى الحدود الكويتية، وعقد مجلس الوزراء الكويتي اجتماعاً طارئاً للبحث في الأمر، وكان أمير الكويت التقى رئيس وزرائه قبل ذلك الاجتماع، وخلصا الى نتيجة مفادها، كما ذكر الكاتبان، ان «التحرّك العراقي عملية عسكرية ضيّقة سوف تقتصر على المنطقة الحدودية المتنازع عليها، ولم يخطر ببالهما ان الكويت بكامله هو الهدف» (ص ٦٠). وكان الرئيس صدام حسين أعلن، في ١٧ تموز (يوليو)، في ذكرى استيلاء حزب البعث على السلطة في العراق، انه «بفضل أسلحتنا الجديدة، لن يستطيع الامبرياليون، بعد الآن، خوض معركة عسكرية معنا؛ وبديل ذلك انهم يخوضون حرب استنزاف اقتصادي بمساعدة بعض عملاء الامبريالية من حكّام الخليج. ان سياسة تخفيض أسعار النفط التي يطبّقونها هي الخنجر المسموم في ظهر العراق... اذا لم تنفع الكلمات في حمايتنا، فلن يكون أمامنا سوى العمل على اعادة الامور الى نصابها واستعادة حقوقنا» (ص ٥٩). وفي ٢٨ تموز (يوليو)، حاول العراق تجنّب اللجوء الى القوة. ففي ذلك التاريخ التقى الرئيس صدام حسين الرئيس الفلسطيني، ياسر عرفات، وطلب اليه الذهاب الى الكويت، والابلاغ الى أميرها «انه اذا دفع عشرة مليارات دولار أُطالب بها، لأنه استثمر حقل الرميلة النفطي على الحدود، سوف اجمّد حركة العراق العسكرية، وأقلّل من تواجدها» (ص ٨٥). لكن الكويتيين لم يصغوا لتحذيرات الرئيس عرفات. حتى «لقاء جدة»، الذي عُقد في ٣١/٧/١٩٩٠ بين وفدين، كويتي وعراقي، لم ينفع في تحاشي ما وقع؛ بل شكّل هذا اللقاء، حسبما ذكر الكاتبان، «لحظة ارتباك مأساوية، نتج عنها حرب لم يحسن أحد تجنّبها، أو لم يبذل الجهد الكافي لذلك» (ص ٩٣). وكان الرئيس صدام حسين قال لنظيره المصري، حسني مبارك، الذي زار بغداد في ٢٤/٧/١٩٩٠: «لن أستخدم القوة العسكرية ما دامت المفاوضات بين الكويت والعراق قائمة. وأنا، يا أخ مبارك، أرجو عدم الكشف عن ذلك للكويتيين، لئلا يزدادوا غطرسة وادّعاء» (ص ٦٤). بعد هذا اللقاء، «انتقل مبارك على الفور الى الكويت وأبلغ الامير بتفاصيل ما قاله صدام؛ ولكنه اختار من التفاصيل ما يرغب بنقله. لقد أبلغه، على سبيل المثال: ' سمعت من صدام حسين شخصياً انه لن